

الانزياح من منظور شجاعة العربية

بين المعيار والانزياح

أ. مختار بن قويدر
جامعة معسكر

قبل معالجة موضوع البحث، حري بنا أن نشير إلى أن المدونة النقدية-قديما وحديثا- قد تفاعلت مع مصطلح الانزياح إيجابا منذ البداية، على عكس بعض المصطلحات والمواضيع - كالمسرات مثلا- التي نظر إليها البعض نظرة ريب وتنقّص .

إذ عدّ بعضهم إشكالية الانزياح أو العدول من شجاعة العربية وإقدامها على خرق أفق انتظار المتلقي، وكسر الرتبة المقيّنة، للوصول إلى غاية الإمتاع ورونق الإبداع.

وشجاعة العربية تعني إقدام المبدع على أسلوب مشوّش ومستفّر (Provoqué) من شأنه كسر الرتبة والخروج عن المعيار وخرق المألوف لدى القارئ، أو خرق أفق انتظاره، بعناصر مفاجئة تجمل النص الأدبي وتعمل على إنتاجية الدلالات من خلال علائق كثيرة تتولد من خلال القراءات المتعددة.

وفي النقد الأدبي الحديث يعتمد الكثير من النظريات الشعرية في تفسير الفاعلية الشعرية على الانزياح. وهو هنا ترجمة لكلمة Ecart ، فالذي يحدد الواقعة الشعرية في نظر روادها هو انزياحها عن سنن اللغة. والحديث عن الانزياح يفترض وجود أصل ينزاح عنه هو المعيار " La norme (1)".

يعد الانزياح ظاهرة أسلوبية ترتبط بخصائص اللغة الشعرية المتميزة بطبيعتها عن لغة النثر، وهو في أبسط تعاريفه خروج عن المألوف أو النمط اللغوي لغاية فنية (2).

وهو من الظواهر المهمة وبخاصة في الدراسات الأسلوبية والألسنية الحديثة، التي تدرس النص الشعري على أنه لغة مخالفة للمألوف والعادي (3)، وقد وصفت ظاهرة الانزياح بعدة تعابير اصطلاحية، مثل: الجسارة اللغوية والغرابية والشذوذ اللغوي، والابتكار والعدول، والازورار والانتساع (4)..و غير ذلك.

والانزياح يعني خروج التعبير عن السائد أو المتعارف عليه قياسا في الاستعمال، رؤية ولغة وصياغة وتركيبا؛ فالانزياح يعني البعد عن مطابقة القول للموجودات، مثل هذا البعد له أنماطه الأسلوبية التي تتحدد كأنماط غير مباشرة، هذه الأنماط تستعين بأدوات لغوية عديدة، أو بتقنيات لغوية جديدة. (5)

وقد اهتم علماء الأسلوب في العصر الحديث بهذه الظاهرة اهتماما كبيرا، حتّى عزّف فاليري الأسلوب" بأنه انحراف عن قاعدة ما" (6) ويرى بعض النقاد المحدثين أن الشعر انزياح عن معيار هو قانون اللغة، ولكنه ليس انزياحا عشوائيا، ويذهب إلى أن الانزياح هو الشرط الضروري لكل شعر، بل لا يوجد شعر يخلو من الانزياح. (7)

كما أكد نقاد العصر الحديث أنّ الدراسات الأسلوبية تختلف باختلاف الموقع الذي تنطلق منه، والرؤية التي تحملها. ونستطيع من خلال دراسة قدمها "جورج موان"، أن نوجز، في ثلاث نقاط، المنعطقات النظرية للدراسات الأسلوبية، سعيا وراء تعريف كل منها للأسلوب، وتحديد رؤيتها له.

وفي هذا الباب نجد "جورج موان" يقول: ثمة أسلوب بالنسبة إلى بعضهم، عندما تحتوي العبارة على انزياح يخرج بها عن المعيار. فقولنا: "البحر أزرق" لا يتجاوز كلام كل الناس. إنه الدرجة الحيادية، أو الدرجة صفر للتعبير. ولكن أن نبتدع كما ابتدع "هومير" فنقول: "البحر بنفسجي"، أو "البحر خمري"، فإن هذا يمثل حدثا أسلوبيا" (8)

أنواع الانزياح:

لقد درس عدد كبير من الباحثين الانزياح في اللغة والأدب، وإذا كنا هنا لا يسعنا أن نقف على مجمل هذه الدراسات أو بعضها، فإنه يمكننا، مع ذلك، أن نقول بصورة مبدئية قبل أن نأتي بتعريف له: ثمة أنواع من الانزياح، نذكر منها:

1- انزياح عنصر من العناصر المكونة للنص عن مقصود عنصر سابق عليه، مما يؤدي إلى قطع التتابع الدلالي، وكسر السياق، وتمزيق التناغم الداخلي، وتفتيت الوحدة المعرفية الأساسية لتنامي النص، وجعلها وحدات يربط بينها عنقود الوزن وعقد الإيقاع. وقد سمي العرب هذا الضرب من الانزياح:المتنافر. ومثال ذلك قول حبيب بن أوس:

محمد إن الحاسدين حشود وإن مصاب المزن حيث تريد

2-انزياح النص عن وحدته المنطقية، واحتواؤه على المتناقضين، كقول أبي تمام:

لعب الشيب بالمفارق بل جد فأبكي تماضرا ولعوبا

يا نسيب الثغام ذنبك أبقي حسناتي عند الحسان ذنوبا

ولئن عين ما رأين لقد أنكرن مستكرا وعين معيبا

حيث نجد النص يضع أمامنا صورة لحسان يبكين مشيب الرجل، وأولاً، ثم يفاجئنا فيكشف عن معنى آخر يعين فيه الرجل على مشيبه.

3- مخالفة النص لنفسه وانزياح العبارة فيه عن غاية المتكلم. فقد ذكر المرزباني أن أبا تمام قال

مادحا:

وكن كريما تجد كريما تحظى به يا أبا المغيث

وقوله:كن كريما إنما يقال للنيم.(9)

4- انزياح النص عن الشيفرة اللغوية المتعارف عليها، كقوله تعالى: " وهو الذي جعل لكم الليل لباسا" فلفظ اللباس ليس من خواص الليل، كقولنا:بط الليل مظلم أو أسود، أو مخيف"، إلى آخره. والجدير بالذكر، أن كل هذه الأمثلة ما كانت لتؤدي وظائفها لو لم تكن قائمة على هذا النوع من الانزياح أو ذاك. وهذا يعني أن الوظيفة هي التي تعطي الأسلوب الذي يتجلى التعبير فيه هيأته المخصوصة التي خالف فيها المعيار وانزاح عنه، وإذا كان هذا هكذا، فإنه يمكن تحليل الانزياح على النحو التالي:

ثمة معيار يحدده الاستعمال الفعلي للغة. ذلك لأن اللغة نظام، وإن تقيّد الأداء بهذا النظام هو الذي يجعل النظام معيارا ويعطيه مصداقية الحكم على صحة الإنتاج اللغوي وقبوله. أما الانزياح فيظهر إزاء هذا على نوعين:إنه إما خروج على الاستعمال المألوف للغة، وإما خروج على النظام اللغوي نفسه، أي خروج على جملة القواعد التي يصير بها الأداء إلى وجوده، وهو يبدو في كلا الحالتين، كما يمكن أن نلاحظ، وكأنه كسر للمعيار. غير أنه لا يتم إلا بقصد من الكاتب أو المتكلم. وهذا ما يعطي لوقوعه قيمة لغوية وجمالية ترقى به إلى رتبة الحدث الأسلوبية. (10)

جذور الانزياح في المدونة النقدية العربية القديمة:

و لقد عالج النقاد العرب القدامى قضية الانزياح تحت مسمى آخر، ألا وهو " مصطلح العدول" وهو أيضا من شجاعة العربية كما قالوا عنه في كتاباتهم النقدية والبلاغية، ومن العدول نجد الاستعارة والهدف والحقيقة والمجاز، والالتفات، والتقديم والتأخير، " ولعلّ مما يؤكد أهمية الانزياح أنه لا ينحصر في جزء أو اثنين من أجزاء النص. وإنما له أن يشمل أجزاء كثيفة متنوعة متعددة. فإذا كان قوام النص لا يعدو أن يكون في النهاية إلا كلمات وجملا، فإنّ الانزياح قادر على أن يجيء في الكثير الكثير من هذه الكلمات وهذه الجمل.

اقسام الانزياح:

وربما صحّ من أجل ذلك أن تنقسم الانزياحات إلى نوعين رئيسيين تنطوي فيهما كل أشكال الانزياح.

فأما النوع الأول فهو ما يكون فيه الانزياح متعلقا بجوهر المادة اللغوية مما سماه كوهن" الانزياح الاستبدالي"(11) وأما النوع الآخر فهو يتعلق بتركيب هذه مع جاراتها في السياق الذي ترد فيه؛ سياقاً قد يطول أو قد يقصر، وهذا ما سمي " الانزياح التركيبي".

وتمثل الاستعارة عماد الانزياح الاستدلالي، ويمكن أن نجد له تمثيلاً في بيت فاليري الذي أورده جان كوهن: هذا السطح الهادئ الذي تمشي فيه الحمامم(12)

إذ إنّ السطح في سياق القصيدة يعني البحر. أما الحمامم فتعني السفن. ولو أنّ البيت كتب بالبحر والسفن لما كانت فيه أية شاعرية؛ فالواقعة الشعرية إنما بدأت منذ أن دعي البحر سطحاً، ودعيت البواخر حمامم. (13)و يمكن أن نشرح هذه العلاقة الانزياحية كالآتي:

(1)البحر --- الذي تمشي فيه السفن (الدرجة صفر للتعبير).

(2)السطح الهادئ --- الذي تمشي فيه الحمامم (الانزياح هنا يمثل حدثاً أسلوبياً).

ويمثل هذا عند كوهن خرقاً لقانون اللغة؛ أي انزياحاً لغوياً يمكن أن ندعوه كما تدعوه البلاغة صورة بلاغية، وهو وحده الذي يزود الشعرية بموضوعها الحقيقي. ولئن لم يصرح كوهن ههنا بالاستعارة تصريحا واضحا فإنه في موضع آخر يعزو لها كل فضل للشعر(14)، وتراه يقول: إن:"المنبع الأساسي لكل شعر هو مجاز المجازات؛ هو الاستعارة"(15)

وهكذا تشكل اللغة من وجهة نظر النقد الحديث منطلقاً رئيسياً في دراسة الخطابات وتصنيفها، لأن الخطابات تتمايز فيما بينها بطريقة استخدامها للغة، فكما التزم الخطاب بالقوانين المعيارية التي ينتمي إليها محتفظاً بالدلالة المعجمية المتواضع عليها للألفاظ مبتعداً عن التحريف والتشويه في قوانين اللغة، زادت صلته بالنثر العلمي الذي يتسم بالمباشرة والتقريرية في الأسلوب، فهو ينتمي إلى ما أسماه رولان بارت بالدرجة الصفر للكتابة.(16)

وإذا عمد الخطاب إلى تحطيم قوانين اللغة العادية مقيماً على أنقاضها قوانينه وأنظمتها الخاصة فهو ينتسب حتماً إلى الخطاب الأدبي ولا سيما الشعري منه الذي يمثل الشكل الأقوى للأدب، والدرجة القصوى للأسلوب.(17)

وقد حدّد كوهن الأسلوب بخط مستقيم يمثل طرفاه قطبين، القطب النثري الخالي من الانزياح، والقطب الشعري الذي يصل فيه الانزياح إلى أقصى درجة، ويتوزع بينهما مختلف أنماط اللغة المستعملة فعلياً، وتقع القصيدة قرب الطرف الأقصى، كما تقع لغة العلماء، بدون شك، قرب القطب الآخر.(18)

الانزياح التركيبي:

ويحدث مثل هذا الانزياح من خلال طريقة في الربط الدوال بعضها ببعض في العبارة الواحدة أو في التركيب والفقرة.و من المقرر أنّ تركيب العبارة الأدبية عامة والشعرية منها على نحو خاص، يختلف عن تركيبها في الكلام العادي أو في النثر العلمي: فعلى حين تكاد كلمات تخلو هذين الأخيرين أفراداً وتركيباً من كل ميزة أو قيمة جمالية فإن العبارة الأدبية أو التركيب الأدبي قابل لأن يحمل في كل علاقة من علاقاته قيمة أو قوماً جمالية. فالمبدع الحق هو من يمتلك القدرة على تشكيل اللغة جمالياً بما يتجاوز إطار المألوفات، وبما يجعل التنبؤ بالذي سيسلكه أمراً غير ممكن. ومن شأن هذا إن أن يجعل متلقي الشعر في انتظار دائم لتشكيل جديد.

ومن هنا نجد بعض الغربيين - ومنهم كوهن- يؤكدون على أهمية الانزياح التركيبي، وخاصة قضية التقديم والتأخير التي يسميها كوهن بـ "الانزياح النحوي"(19).

وهناك من أدرج مصطلحين ضمن الانزياحات التركيبية، وهما الحذف والإضافة،" إذ يلاحظ في الشعر حذف أشياء لا ترى محذوفة في الكلام العادي، وذكر أشياء لا ترى في الكلام العادي. ولكن ذلك لا ينسحب على كل حذف وإضافة، لأن ثمة في الكلام العادي أيضاً حذفاً وإضافة. وعلى ذلك لا يعد هذان انزياحاً إلا إذا حققا غرابة ومفاجأة وإلا إذا حملتا قيمة جمالية ما"(20).

ونجد صلاح فضل قد ربط بين التقديم والتأخير وبين الحذف والإضافة، فرأى إمكانية اعتبار التقديم والتأخير " من قبيل الحذف والإضافة لأنهما يتزمان حذف عنصر من مكانه أو موضعه وإضافته إلى موقع ليس له". (21)

وقد تظنت المدونة النقدية العربية القديمة إلى دور الانزياح أو العدول في قيمة العمل الإبداعي، لما له من خرق أفق انتظار المتلقي، وكسر للرتابة المملّة. ولذلك " يعد المستوى التركيبي من أهم المستويات اللغوية التي يعتمد عليها الباحثون في دراستهم للشعرية، حيث إنهم يتخذون من القواعد النحوية معيارا لغويا صارما ينطلقون منه إلى رصد ظاهرة شعرية مهمة ألا وهي: ظاهرة الانزياح التركيبي التي تقوم على خرق القوانين المعيارية للنحو بغية تحقيق سمات شعرية جديدة تعجز عنها اللغة في حال تمسكها بأبعادها المعيارية الصارمة.

والقواعد النحوية لا تقل في هذا الدور المعيارى عن الدلالات الوضعية أو العلاقات الإنشائية كما أوضحن سابقا، إذ أنمها تشكل المرجع الذي يتم من خلاله التعرف إلى المواضع الأصلية الثابتة للكلام، وهذه المعرفة هي التي تسعف المتلقي في الكشف عن مواطن الانحراف التركيبي الواردة في أي نص أدبي.

أشكال الانزياح التركيبي عند ابن جني:

لقد قد تنبّه تراثنا اللغوي والنقدي للقيمة الفنية لهذا البعد الانزياحي الذي يشكل محورا مهما من محاور الشعرية الحديثة، وتجلّى ذلك من خلال وضع ابن جني بعض أشكال الانزياح التركيبي كالحذف والزيادة والتقديم والتأخير (22) ضمن ما أسماه ب: شجاعة العربية.

يقول ابن جني في باب: شجاعة العربية" اعلم أن معظم ذلك إنما هو الحذف والزيادة والتقديم والتأخير والحمل على المعنى والتحريف.

(و) قد حذف العرب الجملة والمفرد والحرف والحركة . وليس شيء من ذلك إلا عن دليل عليه . وإلا كان فيه ضرب من تكليف علم الغيب في معرفته.

فأما الجملة فنحو قولهم في القسم : والله لا فعلت وتالله لقد فعلت . وأصله : أقسم بالله فحذف الفعل والفاعل وبقيت الحال - من الجار والجواب - دليلا على الجملة المحذوفة . وكذلك الأفعال في الأمر والنهي والتحضيض نحو قولك : زيدا إذا أردت : اضرب زيدا أو نحوه . ومنه: إياك إذا حذرت، أي: احفظ نفسك ولا تُضعها، والطريق الطريق وهلا خيرا من ذلك . وقد حُذفت الجملة من الخبر نحو قولك : القرطاس والله أي أصاب القرطاس . وخبر مقدم أي قدمت خبر مقدم . وكذلك الشرط في نحو قوله: الناس مجزيون بأفعالهم إن خيرا فخيروا وإن شرا فشريوا أي إن فعل المرء خيرا جُزي خيرا وإن فعل شرا جُزي شرا . ومنه قول التغلبي: (إذا ما الماء خالطها سخينا ...) (23)

كما نجد ابن جني يبرّر للشاعر عدوله عن الحقيقة إلى المجاز، قائلا: " وإنما يقع المجاز ويعدل إليه عن الحقيقة لمعانٍ ثلاث، وهي الاتساع والتوكيد والتشبيه، فإن عديم هذه الأوصاف كانت الحقيقة البتة". (24)

وقوله: كانت الحقيقة البتة، أي لا وجود للانزياح مطلقا، وهو ما عبر عنه النقد الحديث بالدرجة صفر للتعبير.

كما نجد ابن جني يفصل الكلام كثيرا في باب التقديم والتأخير، ويعرض لوجوه كثيرة منه في كلام العرب، ويذكر ما يجوز علماء اللغة وما لا يجوز. وقد أهمل بعض الوجوه لأنها معلومة الحال (25)

أما عن ما للتقديم والتأخير من أثر فني فإن هذه الظاهرة في الأدب تقوم على " أساس انتهاك نظام الرتبة في اللغة أو كما يقول " كوهن" على أساس الانزياح عن القاعدة التي تمس ترتيب الكلمات، بحيث يعمد المبدع إلى تحريك الكلمات عن أماكنها الأصلية إلى أماكن أخرى جديدة، فيقيم ما حقه التأخير كالخبر أو المفعول به، ويؤخر ما استحق التقديم كالمبتدأ أو الفعل. ويكون ذلك لغرض فني أو جمالي يؤدّ تحقيقه. (26)

سببويه والانزياح:

ويمكن أن نذكر من البلاغيين والنحويين العرب الذين التفتوا إلى هذه الظاهرة، العالم اللغوي والنحوي " سيبويه " الذي تنبّه إلى الأثر الدلالي لها وأن من أغراض التقديم والتأخير العناية والاهتمام، وإحداث الأثر لدى المتلقي، إذ نجده يقرر هذه الحقيقة قائلاً: " كأنهم إنما يقدّمون الذي بيانه أهم لهم وهم يبيانه أعنى، وإن كان جميعاً يهمانهم ويعنيانهم". (27)

نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني وعلاقتها بالانزياح:
تعد نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني من أهم النظريات النقدية التي ألقت الضوء على هذه الظاهرة، منبّهة لقيمتها الفنية وأكثر ما تمثّل ذلك في الحديث عن ظاهرتي:

(1) التقديم والتأخير

(2) الحذف.

عند حديث الجرجاني عن التقديم والتأخير، نجده يدرك أهمية هذه الوسيلة الشعرية من الناحية الفنية ويتجلى ذلك في الفصل الخاص الذي عقده لها في كتابه دلائل الإعجاز، تناول فيه بعض الشواهد الشعرية والقرآنية التي تؤكد أثرها البالغ في إضفاء الصبغة الجمالية على الصياغة. يقول: " هو باب كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية لا يزال يفتر لك عن بدیعة، ويفضي بك إلى لطيفة. ولا تزال ترى شعراً يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك، ولطف عندك أن قدم فيه شيء وحول اللفظ عن مكان إلى مكان. (28)

فالتقديم والتأخير بابٌ:

1- كثير الفوائد

2- جم المحاسن

3- واسع التصرف

4- بعيد الغاية

5- لا يزال يفتر لك عن بدیعة

6- يفضي بك إلى غاية

وكل هذه العناصر الجمالية الممتعة، التي تروق السامع وتلطف لديه بسبب: " أن قدم فيه شيء وحول اللفظ عن مكان إلى مكان".

أما عن الحذف فيقول: هو بابٌ دقيق المسلك لطيف المآخذ عجبُ الأمر شبيهه بالسحر فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة وتجذك أنطق ما تكون إذا لم تنطق وأتم ما تكون بياناً إذا لم تُبَيّن . وهذه جملةٌ قد تنكرها حتى تُخبر وتدفعها حتى تنظر. ثم يختم باب الحذف مستخلصاً نتيجة مفادها: " أفيكون دليلٌ أوضح من هذا وأبين وأجلى في صحة ما ذكرت لك من أنك قد ترى ترك الذكر أفصح من الذكر والامتناع من أن يبرز اللفظ من الضمير أحسن للتصوير" (30). ومما لاشك فيه " أن ظاهرة الحذف تسهم بنصيب وافر في خلق الفضاء الشعري واتساع آفاقه، وذلك يتم بإضافة المتلقي للعناصر الغائبة إلى المقول بالفعل. وهي إضافة تقوم على وفرة الاحتمالات وتنوعها بقدر ما توحى به الفجوات التي تتخلل العناصر الحاضرة في الشعر. (31). ولقد عدّ البلاغيون العرب هذا الفن- أعني الحذف والتقديم والتأخير وغير ذلك- ضرباً من العدول، وللعُدول هدف متوحى، كالإطراب والإلذاز وقطع السامة والضجر، أو لضرورة يتطلّبها السياق .

ابن الأثير يعد الانزياح باباً مشكلاً صعب المرتقى:

يرى ابن الأثير في التوسع مهارة وقدرة على منح اللغة مجالات أوسع، فيبين أن القسم الذي يكون العُدول فيه عن الحقيقة إلى المجاز لغير مشاركة بين المنقول والمنقول إليه لا يصح إلا لطلب التوسع في الكلام وهو سبب صالح، إذ التوسع في الكلام مطلوب.

ويبدو أن ابن الأثير يعني بالتوسع، هنا، التشخيص الذي يقوم على بث الحياة في الجمادات والحيوانات، مما ينتقل باللغة من دائرة المألوف إلى اللامألوف واللامتوقع. ومن الجدير ذكره أن الانزياح تقنية فنية يستخدمها الشعراء للتعبير عن تجاربهم الشعورية، ولم يكن خاصاً بشعراء عصر

معين، أما تجليات الانزياح، فتبتدئ في الاستعارة وبخاصة التشخيص، وتراسل الحواس والتضاد والتقديم والتأخير في التراكيب. (32)

ويذهب ابن الأثير إلى أن التوسع نوعان "وأما القسم الذي يكون العدول فيه عن الحقيقة إلى المجاز لغير مشاركة بين المنقول والمنقول إليه، فذلك لا يكون إلا لطلب التوسع في الكلام وهو سبب صالح إذ التوسع في الكلام مطلوب، وهو ضربان: أحدهما: يرد على وجه الإضافة، واستعماله قبيح؛ لبعدهما بين المضاف والمضاف إليه، وذلك لأنه يلتحق بالتشبيه المضمحل الأداة، وإذا ورد التشبيه ولا مناسبة بين المشبه والمشبه به كان ذلك قبيحا، ولا يستعمل هذا الضرب من التوسع إلا جاهل بأسرار الفصاحة والبلاغة، أو ساه غافل يذهب به خاطره إلى استعمال ما لا يجوز ولا يحسن، كقول أبي نواس:

بِحْ صَوْتِ الْمَالِ مِمَّا ... مِنْكَ يَشْكُو وَيَصِيحُ (33)

فقوله: "يح صوت المال" من الكلام النازل بالمرّة، ومراده من ذلك أن المال يتظلم من إهانتك إياه بالتمزيق، فالمعنى حسن، والتعبير عنه قبيح، وما أحسن ما قال مسلم بن الوليد في هذا المعنى:

تَظَلَّمُ الْمَالَ وَالْأَعْدَاءُ مِنْ يَدِهِ ... لَا زَالَ لِلْمَالِ وَالْأَعْدَاءُ ظِلَامًا (34)

وكذلك ورد قول أبي نواس: (مَا لِرَجُلٍ الْمَالِ أَمْسَتْ ... تَشْتَكِي مِنْكَ الْكَلَالَا) (35) فإضافة الرجل إلى المال أفصح من إضافة الصوت، ومن هذا الضرب قول أبي تمام: وَكَحْمٍ أَرَزَّتْ مِنْكُمْ عَلَى فَبِحْ قَدَّهَا ... صُرُوفُ النَّوَى مِنْ مُرْهَفٍ حَسَنِ الْقَدِّ (36) فإضافة القد إلى النوى من التشبيه البعيد البعيد، وإنما أوقعه فيه المماثلة بين القد والقد، وهذا أدب الرجل في تتبع المماثلة نارة والتجنيس أخرى، حتى إنه ليخرج إلى بناء يعاب به أفصح عيب وأفحشه. وكذلك ورد قوله: بَلُونَاكَ أَمَا كَعْبٌ عَرَضِكَ فِي الْعُلَا ... فَعَالَ وَأَمَّا خُدَّ مَالِكَ أَسْفَلُ (37)

فقوله: كعب عرضك وخد مالك، مما يستقبح ويستنكر ومراده من ذلك أن عرضك مصون ومالك مبتذل إلا أنه عبر عنه أفصح تعبير وأبو تمام يقع في مثل ذلك كثيرا. وأما الضرب الآخر من التوسع، فإنه يرد على غير وجه الإضافة وهو حسن لا عيب فيه، وقد ورد في القرآن الكريم كقوله تعالى: " ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين" (38). فنسبة القول إلى السماء والأرض من باب التوسع لأنهما جماد، والنطق إنما هو للإنسان لا للجماد، ولا مشاركة ههنا بين المنقول والمنقول إليه. وكذلك قوله تعالى: "فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين" (39) وعليه ورد قول النبي-صلى الله عليه وسلم- فإنه نظر إلى أحد يوما فقال: (هذا جبل يحبنا ونحبه)(40) فإضافة المحبة إلى الجبل من باب التوسع؛ إذ لا مشاركة بينه وبين الجبل الذي هو جماد.

وعلى هذا ورد مخاطبة الطول، ومساءلة الأحجار، كقول أبي تمام:

أَمِيدَانِ لَهْوِي مَنْ أَتَاكَ لَكَ الْبَلَى ... فَأَصْبَحْتَ مِيدَانَ الصَّبَا وَالْجَنَابِ (41)

وكقول أبي الطيب المتنبي:

إِثْلُثُ فَاتَا أَيُّهَا الظَّلُّ ... نَبْكِي وَتُرْزِمُ تَحْتَنَا الْإِبِلُ (42)

فأبو تمام سائل ربوعا عافية وأحجارا دارسة، ولا وجه لها ههنا إلا مساءلة الأهل؛ كالذي في قوله تعالى: "وَسئَلُ الْقَرْيَةَ": (43) أي: أهل القرية، وكل هذا توسع في العبارة؛ إذ لا مشاركة بين رسوم الديار وبين فهم السؤال والجواب، وكذلك قال أبو الطيب المتنبي في أمره الظل بأن يكون ثالثا لهما، أي الركب والإبل، وهذا واضح لا نزاع فيه. (44)

كما أننا نجد ابن الأثير يوجه أرباب البيان إلى أسباب العدول، ويحذر من الخوض فيه لأنه باب مشكل صعب المرتقى "واعلم أيها المتوشح لمعرفة علم البيان، أن العدول عن صيغة من الألفاظ إلى صيغة أخرى، لا يكون إلا لنوع خصوصية اقتضت ذلك، وهو لا يتوخاه في كلامه إلا العارف برموز الفصاحة والبلاغة، الذي اطلع على أسرارهما، وفتش عن دقاتهما، ولا تجد ذلك في كل كلام، فإنه من أشكل ضروب علم البيان وأدقها فهما، وأغمضها طريقا. (45)

أما النقاد والمبدعون المحدثون فقد عدّوا الانزياح التركيبي واحدا من أهم العناصر المُسهمّة في وجود اللغة الشعرية، فها هو الشاعر "أراغون" يؤكد بأنه لا يتحقق الشعر إلا بقدر تأمل اللغة وإعادة خلق اللغة مع كل خطوة. وهذا يفترض تكسير الهياكل الثابتة للغة وقواعد النحو وقوانين الخطاب. (46)

ويرى "ياكيسون" (47) أنّ المنحنيات المشوّهة بلطف التي تبرز على أرضية هذا الاطراد واللامتوقع والفجاءة والذهول تشكل بدورها جزءا جوهريا من المفعول الفنّي. (48).

الإحالات

- 1 الانزياح المنطقي من منظور جماعة" مو /" الحسن بواجلابن، مجلة (علامات في النقد)- البلاغة والأسلوب، النادي الأدبي الثقافي بجدّة، المجلد17، الجزء67، ذو القعدة 1439هـ، نوفمبر2008، ص: 167
- 2النص الشعري القديم وقضايا التلقي/ د عبد العزيز الحلوي، مطبعة الخليج العربي، تطوان-المغرب، ط:1، 2009، ص: 83
- 3ظاهرة الانزياح الأسلوبي في شعر خالد بن يزيد الكاتب/ د صالح علي سليم الشتيوي، مجلة جامعة دمشق، المجلد(21)، العدد(3+4)، 2005، ص: 83
- 4النقد والأسلوبية بين النظرية والتطبيق / ابن ذريل عدنان، منشورات اتحاد الكتاب العرب- دمشق، 1989، ص: 25، كما ينظر: الانحراف مصطلحا نقديا/ موسى رابعة، مجلة مؤتة للبحوث والدراسات - العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد: 10، العدد: 04، 1995، ص: 145-146
- 5 ينظر: أطراف الوجه الواحد/ نعيم الوافي، منشورات اتحاد الكتاب العرب-دمشق، 1995، ص: 92، كما ينظر: في القول الشعري/ يمني العيد، دار توبقال، الدار البيضاء-ط1-1987، ص: 20
- 6 علم الأسلوب/ صلاح فضل، ص: 154
- 7 بنية اللغة الشعرية / جان كوهن، ص: 192-193
- 8Encyclopoedia Universalis.V 15.P 466.Paris 1980
- 9الموشح/ المرزباني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الاسكندرية-1978، ص: 295
- 10مقالات في الأسلوبية / د منذر عياشي، منشورات اتحاد الكتاب العرب- دمشق-1990، ص: 79-81
- 11بنية اللغة الشعرية/ جان كوهن، ترجمة محمد الوالي ومحمد العمري، دار توبقال للنشر- المغرب، ص: 205
- 12 المرجع نفسه، ص: 42
- 13 ينظر: الانزياح من منظور الدراسات الأسلوبية / د أحمد محمد ويس، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان ط:1- 2005، ص: 111-112
- 14 الانزياح من منظور الدراسات الأسلوبية / د أحمد محمد ويس، ص: 112
- 15بنية اللغة الشعرية، جان كوهن، ص: 170
- 16بنية اللغة الشعرية/ جان كوهن، ص: 24
- 17بنية اللغة الشعرية/ جان كوهن، ص: 142
- 18شعرية الانزياح/ أميمة الرواشدة، منشورات أمانة عمان الكبرى - الأردن، 2005، ص: 53.
- 19 بنية اللغة الشعرية، ص: 179
- 20الانزياح من منظور الدراسات الأسلوبية/ د أحمد محمد ويس، ص: 125
- 21 بلاغة الخطاب و علم النص/ د صلاح فضل، سلسلة عالم المعرفة، الكويت: 1992، ص: 87
- 22 شعرية الانزياح/ أميمة الرواشدة، ص: 183-184
- 23الخصائص / ابن جني، تحقيق: محمد علي النجّار، عالم الكتب - بيروت، دت، ط2، ج: 2، ص: 360.
- 24الخصائص، ابن جني، ج: 2، ص: 442-444
- 25 ينظر: الخصائص/ ابن جني، ج: 2، ص: 382- 390.

- 26 شعربة الانزياح/ أميمة الرواشدة، ص: 187-188.
- 27 الكتاب / أبو بشر عمرو بن عثمان سيبويه، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، دار الجبل- بيروت، ج1، ص: 34.
- 28 دلائل الإعجاز في علم المعاني/ عبد القاهر الجرجاني، دار الكتاب العربي - بيروت ط1، 1995، تحقيق: د. محمد التنجي، ص: 96.
- 29 دلائل الإعجاز في علم المعاني/ عبد القاهر الجرجاني، ص: 121.
- 30 دلائل الإعجاز، ص: 140.
- 31 النص الشعري القديم وقضايا التلقي/د عبد العزيز الحلوي، ص: 94.
- 32 ظاهرة الانزياح الأسلوبية في شعر خالد بن يزيد الكاتب/ د صالح علي سليم الشتيوي، ص: 86.
- 33 من قصيدة له يمدح فيه العباس بن عبيد الله بن أبي جعفر المنصور، وأولها: غرَّدَ الديك الصَّدُوحُ فاسقني طابَّ الصَّبُوحُ (ينظر الديوان، ص: 68).
- 34 من قصيدة له يمدح فيها يزيد بن مزيد الشيباني، وأولها قوله: طيف الخيال حمدنا منك الإماما داويت سقما وقد هيجت أسقاما
- 35 من قصيدة له يمدح فيها إبراهيم بن عبيد الله الحجي، وأولها قوله: هل عرفتَ الرَّبِّعَ أجلى أهلهُ عنه فزالا (ينظر الديوان، ص: 118).
- 36 من قصيدة له يمدح فيها موسى بن إبراهيم الرافقي ويعتذر إليه، وأولها قوله: شهدت لقد أفرقت مغانيكم بعدي ومحت كما محت وشائع من يزيد.
- 37 من قصيدة له يمدح فيها أبا المستهل محمد بن شقيق الطائي، وأولها قوله: تحمَّلَ عنه الصبرَ يوم تحمَّلوا وعادت صباة في الصبا وهي شمال
- 38 سورة فصلت، الآية 11.
- 39 سورة الدخان، الآية 29.
- 40 قال البخاري: حدثنا عبد العزيز بن عبد الله حدثنا محمد بن جعفر عن عمرو بن أبي عمرو مولى المطلب بن حنطب أنه سمع أنس بن مالك رضي الله عنه يقول: خرجت مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى خيبر أخدمه فلما قدم النبي -صلى الله عليه وسلم- راجعا وبدا له أحد قال: (هذا جبل يحينا ونحبه). ثم أشار بيده إلى المدينة قال: (اللهم إني أحرم ما بين لابتيها كتحريم إبراهيم مكة اللهم بارك لنا في صاعنا ومدنا). الجامع الصحيح المختصر/ محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي- دار ابن كثير، اليمامة - بيروت ط:3، 1407 - 1987 تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، ج:3، ص: 1058).
- 41 من قصيدة له يمدح فيها أبا دلف القاسم بن عيسى العجلي، وأولها قوله: على مثلها من أربُع وملاعب تُذالُّ مَصُوناتُ الدموع السواكب
- 42 هذا مطلع قصيدة يمدح فيها عضد الدولة، وبعده قوله:
- أولا فلا عتب على طلل إنَّ الطلول لمثلها فُعل**
- وهنا يريد الشاعر: كن أيها الطلل ثالثا في البكاء على فقد الأحبة؛ فنحن نبكي والإبل من تحتنا تساعدنا بحنينها، وهو قريب من قول البحري: أطلبا ثالثا سواي فإني رابع العيس والدجى والبيد
- 43 سورة يوسف، جزء من الآية 82، والآية كاملة هي: " وسئل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها وإنا لصادقون" يوسف: 82.
- 44 المثل السائر/ ابن الأثير، ج: 1، ص: 348-351
- 45 المثل السائر / ابن الأثير، ج: 2، ص: 12.
- 46 بنية اللغة الشعرية/ جان كوهن، ص: 176.
- 47 قضايا الشعرية / رومان ياكبسون، ترجمة: محمد الوالي، ومبارك حنون، دار توبقال للنشر، المغرب، ط1 - 1988، ص: 83.
- 48 ينظر: شعربة الانزياح / أميمة الرواشدة، ص: 183-184.